﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ [آل عمران: 163]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أُفهِم الإنكار على من سوّى بين النّاس أنّهم متمايزون صرّح بذلك في قوله:

﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾، أي: متباينون تباين الدَّرجات[1]؛ لأنّ نتيجة عدم التّساوي بين من يتّبع رضوان الله تعالى، ويطلبه بإقامة الطّاعات على وجهها الأكمل، ومن يختارون الشّرّ سبيلًا هي أن يكون النّاس درجات بحسب مقدار طلب الرّضوان، ومقدار اتّباع السّخط[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَرَجَٰتٌ﴾: استعمال الدَّرَجَة في الرِّفعة والمنزلة، ودَرَجاتُ الجنان: منازلُ أرفع من منازل[3]؛ إذ يُقال للمنزلة درجة إذا اعتُبرت بالصّعود دون الامتداد على البسيطة، كدرجة السّطح والسّلم، ويُعبَّر بها عن المنزلة الرّفيعة: قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [البقرة: 228] تنبيهًا لرفعة منزلة الرّجال عليهنّ في العقل والسّياسة[4]. فالدّرَجةُ واحدةُ الدَّرجات، وهي الطّبقات منَ المراتب[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

منازل الآخرة تتفاوت وفق أعمال أصحابها

النّاس يتفاوتون في الجزاء عند الله كما يتفاوتون في الدنيا في المعرفة والفضائل، وفي الجهل والرّذائل؛ وفاقَ أعمالهم الحسنة أو القبيحة. وهذا التّفاوت يكون على مراتبَ ودرجاتٍ، يعلو بعضها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/114.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1487.
(3) الخليل، العين: (درج).
(4) الرّاغب، المفردات: (درج)
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (درج).

بعضًا، منَ الرّفيق الأعلى في الدَّرجات العلى، الّتي كان يطلبها النّبيّ ﷺ من ربّه في مرض موته، إلى الدّرك الأسفل من النّار، واللّه تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنّ منازل الثّواب تتفاوت وفاق فضائل الأعمال، فمن رغب بأعلى الدَّرجات شمّر عن ساعد القُربات، فالمتبعون لرضوان اللّه يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيهم اللّه من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط اللّه يسعَوْن في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين، كلٌّ على حَسَب عمله.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ التّشبيه البليغ:

المؤمنون متفاوتون في منازلهم كالدَّرجاتِ

جُعل المؤمنون في قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الدَّرجات نفسها مبالغةً، والمعنى: أنّهم متفاوتون في الجزاء على كَسبهم، كما أنَّ الدَّرجات متفاوتة، والأصل على التّشبيه، أي: هم مثل الدَّرجات في التّفاوت[2]، فالتّشبيه بليغٌ، ووجه ما بينهم من تباين الأحوال في الثّواب والعقاب، كالدَّرجات في تفاوتها علوًّا وسفلًا[3].

المقصودُ بالضميرِ المُنفصلِ في قولِه: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾:

أهلُ الرّضوان هم أهلُ الدَّرجات

اختُلف في عودِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ على ثلاثةِ أقوالٍ، وهي:

الأوَّل: عاد الضَّميرُ إلى قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّهم المقصودون من الكلام، ولقرينة قوله: ﴿دَرَجَٰتٌ﴾؛ لأنّ الدَّرجات

(1) رضا، تفسير المنار: 4/180، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 6/30.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/452.

منازل رفعة، والغالبُ في العُرفِ استعمالُها في أهل الثّواب، والدّركات في أهل العقاب، ثمّ إنّ الكافرين ذُكرت عاقبتهم، فقيل: مأواهم جهنّم، ولم يُذكر للمؤمنين شيء؛ فوجب أن يكون قوله: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ وصفًا لمنِ اتّبع رضوان الله، يزاد عليه أنّ عادة القرآن في الأكثر جارية بأنّ ما كان منَ الثّواب والرّحمة فإنّ الله يضيفه إلى نفسه، وما كان من العقاب لا يضيفه إلى نفسه[1].

جـــوازُ عـــودِ الـضَّـمـيرِ على الـفـريـقـين لتغليبِ الأبرار

الثّاني: ويجوز أن يكون قوله: ﴿هُمْ﴾ عائدًا على الكلّ؛ وذلك لأنّ درجات أهل الثّواب متفاوتة، ودرجات أهل العقاب أيضًا متفاوتة على حسب تفاوت أعمال الخلق، لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزّلزلة: 7 - 8][2]، ويكون إطلاق لفظ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ على الفريقين، وفيهم الأشرار من قبيل التّغليب، فتشمل الدّركات، فالدّرجات[3]، والمغزى من التّعبير بالدّرجاتِ تغليبُ الخيرِ على الشّرِّ، وتغليبُ رِضا الله على سَخَطِه، وتغليبُ الأبرارِ على الفُجّارِ[4].

ضـعـفُ الـقـولِ بـعـودِ الـضَّـمـيرِ إلى أهلِ السّخط

الثّالثُ: الضّمير عائدٌ إلى الأقرب، أي: أهل النّار، باعتبارِهم متفاوتين في مراتب العذاب[5]، وهو وجه تردّه الحُجَجُ المتقدِّمُ ذكرُها، وهو أضعفُ الأقوالِ وأوهاها، وسببُه تمسُّكُ أصحابِه بقاعدةٍ غير مطَّردة، وهي عودةُ الضَّميرِ إلى أقرب مذكورٍ، وفاتَهم أنَّ العودَ إلى أقرب مذكورٍ منضبطٍ بموافقةِ السِّياقِ، وصحَّة المعنى.

بلاغةُ المجازِ بحذفِ المضافِ في قولِه: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾:

يجوز أن يكون قولُه تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ على حَذف مضاف،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416، والبسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 593، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/440، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/179.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1488.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.

اختلافُ الأعمالِ صيّرت المؤمنين بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها

أي: هم أهل درجات، أو ذوو درجات، ولهم درجات عند الله، والمعنى: أنّ المؤمنين ذوو درجة رفيعة، والكافرين ذوو دركة خسيسة[1]، وحُسن هذا الحذف، والاكتفاءُ بالمذكور؛ لأنّ اختلاف أعمالِهم قد صيّرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها؛ فكان هذا المجازُ أبلغَ من الحقيقة[2]؛ ولذلك قصد إلى التّعبير في المَطلَع بالضّمير ﴿هُمۡ﴾ المُعبّر عن ذواتهم دون غيرها من المبهمات.

نكتةُ التّعبيرِ عنِ الدَّرجات بجمع القلّة:

لا يُشمَلُ بمنازلِ الجنّةِ ودرجات النّعيم إلّا المؤمنون

الجموع يقع بعضها مَوقِع بعض لاشتراكها في مُطلَق الجمعيّة، ووضع جمع القلّة مَوضِع الكثرة في قوله تعالى ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾، مع أنّ رتب النّاس في علم الله لا محالة أكثر من العشرة، إشارة إلى قلّة من يُشمَل بهذه الدَّرجات فلا يكون فيها إلّا المؤمنون، وقد نصّ سبحانه على قلّتهم بالإضافة إلى غيرهم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: 3][3].

فائدةُ التّعبيرِ بالظّرف (عند):

ما عند الله أعظمُ وأفخمُ ممّا يُظنُّ أو يُحسب

لمّا كان اعتبار التّفاوت بما عند الله قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: الملك الأعلى في حكمه وعلمه، وإن خفي ذلك عليكم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى خلقهم فهو عالم بهم حين خلقهم[4]، فالمشهور أنَّ العنديَّة هنا عنديّةُ علمٍ وحكم، أي: هم أصحاب درجات في حكم الله، وبحسب علمه بشؤونهم، وما يستحقّون، وكلا المعنيين صحيح ولا تنافي بينهما[5].

سرُّ إظهارِ لفظ الجلالة وتَكراره:

آثرَ النَّظم إظهار لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/516.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.
(3) الزّركشّي، البرهان: 3/355.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/114.
(5) رضا، تفسير المنار: 4/179.

ٱللَّهِ﴾، فلم يقُل: (عنده) لأنَّه يحمل جميع صفات الكمال جريًا على عادة القرآن في الأكثر؛ بأنّ ما كان منَ الثّواب والرّحمة فإنّ الله يضيفه إلى نفسه[1]، والغاية تشريف منازلِ المؤمنين، وإبراز مكانتها بوصفها عنده جلّ في علاه[2].

تشريفُ منازلِ المؤمنين وإبرازُ مكانتِها

ويُلمَح في إظهار اسمه الشّريف وتَكراره في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ قاعدة ذكرها في القرآن؛ بأنَّ إظهار الاسم الجليل في مَوقِع الإضمارِ في مثل هذا المَوضِع لتربية المهابةِ، وإلقاءِ الرَّوعةِ، والمبالغة في التّهديد والتّشديد في الوعيد[3]، فضلًا عن توكيد قدرته، وألوهيّته في مَواطِن العلم، والاستطاعة، والتَّمكين.

المبالغة في التّهديد والتّشديد في الوعيد

التّعبير بصيغة فعيل:

عبَّرتِ الآيةُ بصفة الله البصيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ للدّلالة على ثبوت الصّفة فيه جلَّ في علاه، ورسوخها على الدّوام، والمبالغة في الفعل وتَكراره، وهي تُناسِبُ إبهامَ أعمالِهم، وعمومَها، وتجدّدَها، واستمرارَها بمؤدّى صيغة المضارع.

الدّلالة على رسوخ الصّفة والمبالغة فيها

نكتة التّعبير بـ(ما):

يُستعملُ الاسمُ الموصولُ (ما) لغيرِ العاقلِ، وقد يُستعمل للعاقل، والتّعبير به في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ للدّلالة على الإبهام والعموم، ويعني: مُطلَقَ علمِه، وشمولَ كلِّ أعمالهم فلا يخفى عليه معلومها ومخفيّها.

شمول مُطلَق الأعمال

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّرجات والدّركات:

الدّرك كالدّرج، لكنّ الدّرج يُقال اعتبارًا بالصّعود، والدّرك

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/108، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/104.

الـــدَّرجـــات صعـود يناسب منـازل الجنّة، والـــدّركـــات انحـدار يناسب النّار

اعتبارًا بالحدور، ولهذا قيل درجات الجنّة ودَرَكات النّار، والدَّرْك أقصى قعر البحر[1].

فالحقُّ سبحانه يستعمل كلمة ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ بالنِّسبة إلى تفاضل الأشخاص، والأعمال، والرفعة، والمنزلة في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ فيها منازل ورتبًا، أمّا فيما يتعلّق بالنّار فيأتي لفظ (الدَّرْك)، فالدّركة تنزل، والدّرجة ترفع[2] وأكثر ما تكون كلمة الدّرجة في القرآن بمعنى المنزلة الرّفيعة، وأمّا المنزلة غير الرّفيعة فيعبّر عنها سبحانه بالدّركة[3]. ولذلك كانت لفظة الدَّرجات في محلِّها المناسب لبيان علوِّ منازل المؤمنين عند الله تعالى، وتسفُّلِ درجات المعرضين.

العمل، والقول، والفعل:

الـعـمـل عـامّ يندرج تحته كلّ قول وفعل

العمل أهمّ الأحداث؛ لأنّه تعلّق الجارحة بما نيطت به، فالقلب جارحة عملها النّيّة، واللّسان جارحة عملها القول، والأذن جارحة وعملها الاستماع، والعين جارحة وعملها أن تنظر. فكلُّ جارحة من الجوارح لها حَدَثٌ تنشئه لتؤدِّي مهمتها في الكائن الإنسانيّ، وكلُّ أداءِ مُهِمّة من جارحة يُقال له: عمل. أمَّا الفعل فهو تعلّق كلّ جارحة غير اللّسان بالحدث، أمّا تعلّق اللّسان فيكون قولًا، ومقابله فعل، إذن ففيه قول، وفيه فعل، وكلاهما عمل، فالعمل يشمل، ويضمّ القول والفعل معًا؛ لأنّ العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها، لكنّ الفعل هو شغل جارحة غير اللّسان بالعمل المطلوب منها، وشغل اللّسان بمهمته يسمّى قولًا ولا يسمّى فعلاً؛ لأنّ الإنسان يتكلّم كثيرًا، لكن أن يحمل نفسه على أن يعمل ما يتكلَّمه فهذه عملية أخرى، فالقول مقابله الفعل، والكلّ عمل ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ قولًا أو فعلًا[4].

(1) رضا، تفسير المنار: 4/180.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1848.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1487 - 1488.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1849.

العـمـل جـلُّ ما يترتّب عليه الجزاء

خُصَّ العملُ دون القول؛ لأنَّ العملَ جلُّ ما يترتّب عليه الجزاء[1]، ولكون العمل شاملًا للفعل، والقول؛ ولأنّه ممّا يترتّب عليه الجزاءُ قُصِدَ إلى اختياره في الآية الكريمة؛ ليناسب جِماع ما تنشِئُهُ جوارحُهم، فضلًا عن كونه في مَوضِع ذكر الجزاء درجاتٍ ومنازلَ رفعةٍ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/108.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»